فرح أنطون وتجذيرُ العلمانية في اليومي العربي والإسلامي

أ.بوعلام سمير
المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة

ملخص

مدار البحث هنا وتحسس إمكان وجود نسق فكري للمفكر فرح أنطون، وأن مطلب العلمنة الذي كان يلحُ عليه في كل أبحاثه ومقالاته يشكل وسيلة وغاية لانتشال الأمة من كبوتها، وجعلها تحقق إمكانها الخاص، المرتبط بالبعد الإنساني من حيثُ هو كذلك، بعيدا عن الخصوصية الدينية، نعم لقد تفطن فرح أنطون إلى مسألة جدّ مهمة وهي أنه لبلوغ المجتمع العربي والإسلامي الفسيفسائي -الذي لا يعترفُ فيه للمختلف ثقافيا واثنيا- إلى مرحلة المجتمع المدني/ الحداثي المتماسك والحيوي يتطلب تضافر الجهود بدءا من العائلة وصولا إلى السلطة السياسية مرورا بالمدرسة في كل أطوارها التي يجبُ أن تكون ذات ثقافة علمانية أو عقلانية التي هي أساسا ثقافة العصر ليس إلا.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب العلماني- الدنيانية- الحرية الدينية- المأسسة الحديثة- العدالة- النهضة العربية.

Résumé

L'orbite de la recherche consiste à sentir la possibilité d'existence d'un format intellectuel du penseur Farah Anton, et que l'exigence de laïcisation qu'il a insisté dans ses projets et articles constitue un moyen et un objectif pour sortir la nation de sa rechute et lui permettre de réaliser son propre potentiel lié à la dimension humaine en termes qu'il est, loin de la vie privée religieuse. Oui, Farah Anton était conscient d'une question très importante, c'est que pour atteindre la société arabe musulmane mosaïque dans laquelle est reconnu aux différents culturellement et ethniquement, à la scène de la société civile, moderne cohésive et vitale nécessite un effort concerté de la famille au pouvoir politique en passant par l'école à toutes ses étapes qui doit être d'une culture laïque ou rationnelle d'où elle ni principalement qu'une culture de l'époque.

Mots-clés :

discours laïque- le mondain- la liberté religieuse- institutionnalisation moderne- la justice- renaissance arabe .

Abstract

The research orbit consists in feeling the possibility of existence of an intellectual format of the thinker Farah Anton, and that the requirement of secularization that he insisted in his projects and articles constitutes a means and a goal to bring out the nation of his relapse and allow him to realize his own potential related to the human dimension in terms that he is, far from religious privacy. Yes, Farah Anton was aware of a very important issue, is that to reach the Muslim Arab mosaic society in which is culturally and ethnically recognized, at the stage of civil society, modern cohesive and vital requires a concerted effort from the family to the political power through the school at all its stages which must be of a secular or rational culture from where it or mainly a culture of the time.

Keywords:

Secular discourse -The worldly- Religious freedom-Modern -Institutionalization- justice -Arab renaissance.

مقدمة

يشكل فرح أنطون الماروني عند واحد كسمير أبو حمدان منعرجا حاسما في الحياة الثقافية العربية-الإسلامية كونه يمثل بداية الاتجاه العلماني ويكفي شاهدا هنا أنه ألف كتابا عنوّنه بـ"فرح أنطون، صعود الخطاب العلماني"1، تدلُ لفظة صعود هنا أن العلمنة كانت قابعة في الأسفل تعملُ في الخفاء بفعل ضغط رقابة القوى الرجعية المتخلفة، وبالتالي يكون أنطون بمثابة ثغرة مرّت منها إلى العلن، لكونه وقبل كل شيء مسيحي لا يهادن تلك القوى، لأنه كان يرى في نفسه أنه صاحب مهمة يجبُ أن يؤديها، مهمة إنهاض الأمة العربية- الإسلامية من كبوتها، ومن يتصفح بدايات كتابه الشهير "ابن رشد وفلسفته" يعرف جيدا بأننا أمام مفكر لا يهادن ولا يوارب مقاصده الحقيقة، بعد الإهداء الذي جاء فيه (إلى عقلاء الشرقيين في الإسلام والمسيحية وغيرهما) نجده يكتب"لا نعلم كيف يستقبل أبناء العصر هذا الكتاب في هذا الزمان ولكنا نعلم أن النبت الجديد في الشرق قد صار كثيرا، ونريدُ بالنبت الجديد أولئك العقلاء في كل ملّة وكل دين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر فصاروا يطلبون وضع أديانهم جنبا في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الإتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد لمزاحمة أهله وإلا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم، فإلى هذا النبت الجديد في الإسلام والمسيحية وغيرهما نهدي هذا الكتاب، ونحنُ على ثقة من أنهم سيطالعونه بهدوء وإمعان دون أن يتركوا للهوى سلطة على نفوسهم"2.

لا شك بأن خطابُ فرح أنطون هذا موجه إلى فئات بعينها من كل الأطياف التي يتكون منها المجتمع العربي – الإسلامي عامة، وهي فئة العقلاء الذين يعرفون جيدا منطق العصر الذي يحيون فيه، والذي هو منطقُ فصل الدين عن السياسي بدءا وفصله عن الدنيا منتها وغاية، إن الفصل هو"أبرز (آلة من الآليات) التي توسلت بها الحداثة في إقامة مشروعها الدنيوي (...)، [وهي بذلك تضييق على الدين في كل المجالات بدلالة أن] الدين يتصل بمختلف مجلات الحياة، و (...) اتصاله بها يتخذ أشكلا وأقدارا متفاوتة، [ولما كان هو كذلك] فقد انبرت الحداثة لهذه الأشكال المختلفة من الاتصال، لتعطّل قانون الدين في هذه المجالات الحيوية حتى تستقل تلك المجالات بنفسها، تدبيرا وتقديرا، وهكذا فصلت الحداثة العلم عن الدين، وفصلت عنه الفن والقانون كما فصلت السياسة والأخلاق، وقد نسميّ عملها في انتزاع قطاعات الحياة من الدين باسم عام هو الدُّنيانية"3. وهي من الدنيا، لأن الحداثة نفسها لا تطلبُ غاية تتجاوز الأرضي إلى المفارق، بقدر ما تغوص في عمق الأرضي وتبقى فيه وعليها فهي لن ترضى بغير الذي نحنُ فيه وداخله، نقصدُ هنا العالم المحيط بنا، والحياة التي نحنُ فيها الآن، إن الآن هو عينُ الحداثة على وجه الدقة، فهي على حقيقتها"ليست تشيعا لسلطة ماضوية، وحنينا إلى أصل تليد وحقبة ذهبية، بل [هي] تمجيد للحاضر وانفتاح على الآتي"4. الذي يحقق فيه الإنسان ماهيته عبر الفعل وتسخير ما يقع تحت اليد لذلك طبعا اعتمد فرح أنطون في تأكيد البعد الدنيوي وبالتالي إزاحة الدين من المجال العام عبر تقديم الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (ت1900)، ففي أحد مقالته كتب يقول:"ومهما قيل في فلسفة نيتش مدحا أو ذما –ومادحوها وذاموها كثيرون- فإننا بعد مطالعتنا خمسة من كتبه التي هي أهم ما كتبه ما زلنا نعتقد بما جهرنا به منذُ سنتين (...) يوم شرعنا لأول مرّة في تلخيص فلسفته وهو أن مبادئ هذا الرجل تحتوي على كثير من الحقائق الضرورية للحياة وعلى أبناء

الشرق أن يطلعوا عليها ليشددوا نفسهم بها، ونريد بهذه المبادئ تلك التي صب فيه المؤلف كل ما أعطي من قوة النفس وحماستها لتحبيب الحياة والنشاط والقوة إلى الناس وخلقهم بهذه الصفات خلقا جديدا وسحق الانحطاط في النفوس والهمم"5.

طبعا محاولة التشبع بهذه الروح النتشوية المغمورة بالقوة وإرادة التسيد من طرف فرح أنطون لا شك أن السبب فيها يعود إلى انتشار قيم الانتظار التي ترسخت كجزء من عقيدة الإنسان العربي- المسلم وحتى المسيحي، الكلُ ينتظر المنقذ سواءٌ المهدي أو نزول عيسى من أجل تحقيق العدالة على الأرض، وبالتالي تم تعطيلُ قدرة الإنسان على كل الجبهات السياسية الحضارية، الاقتصادية، وفي النهاية تم تعطيلُ قدرة المجتمع بأكمله لسلطة الاستكانة والتسليم المطلق بالقضاء والقدر الذي صار من بين أهم ما اتصف ويتصف به المجتمع المصري بصفة خاصة والعربي- الإسلامي بصفة عامة في العصر العثماني6 .

إن التعالي عن الحياة باسم عالم آخر، وبخسها باسمه هو الذي جعل فرح أنطون يوظف نيتشه لإعادة الإنسان العربي- المسلم والشرقي إلى وضعه الطبيعي إلى الدنيا إلى الحياة الحاضرة، لقد وجد في نصوص نيتشه وكتاباته فائدة عظيمة تكمن في"تقوية كل نفس ضعيفة نشأت في الضعف، والخمول والوهن، فمن هذا الوجه يرى كثيرون من الشرقيين فائدة [فيها]، [وعن تجربة] عرفتُ [والقولُ لفرح] شابا متوقد الذهن سريع التأثر ذكي الفؤاد له مشاركة في كثير من أصناف العلوم ولكنه يئس من الحياة يرى كل شيء فيها أسود، ويستصغر شأن الجهاد اليومي في تحصيل الرزق ويقول [صراحة أن] كل شيء باطل، وقد بلغ به اليأس درجة الضعف المطلق وكان ذلك حاصلا في نفسه من ثلاث أمور: الأول تربيته الشرقية الضعيفة التي رأى كل واحد منا آثارها في نفسه أو في من حوله، والثاني كبر أماني نفسه بالنسبة إلى صغر عزيمته وهمته، والثالث مطالعته الكتابات الخيالية واقتباسه المبادئ التي تحلّ العزائم مما لا حاجة إلى تفصيله فلما رأيت منه هذا الضعف إلى هذا الحد أشرت عليه بمطالعة كتب نييتش لتستمد منها نفسه القوة والحماسة، ففعل ولم يطالع أحدها حتى حدثت في نفسه ثورة جديدة وتقوّت نفسه وتشدّدت بعد ضعفها ووهنها وهذا تأثير مبادئ نيتشه وهي في هذا الوجه محمودة وإن كان لها وجه آخر غير محمود ولكن لا بدّ دون الشهد من إبر النحل"7. إنه يضربُ في العمق، ويحدد من أين بدأ المشكل الذي قاد إلى الانحطاط ربما الأسباب السابقة هي نتيجة فقط لمقدمات هي تربية سيئة للأطفال منذُ رسخت فيهم قيم الطاعة والإذعان، وإذلال العقل أمام النصوص الدينية المقدسة، وتراث السلف والتابعين، وتابعي التابعين، وما أنتجوه من تراث أضيفت له شروح وشروح على شروح عبر الزمن مشكلا تراثا ضخما يحملُ بين ثناياه تناقضا صارخا يحثُ أو يتجاور المعقول واللامعقول فيه والأساطير مع العلم، واليهودي والنصراني مع الإسلامي والنتيجة ثقافة تقتلُ الإنسان وفقدان فكرة الإنشداد إلى الحياة عبر الفعل، والأحرى إنسان مريض لإدمانه للأفيون القادم من الماضي السحيق، والدواءُ الذي اكتشفه فرح مطمورٌ في النصوص النيتشوية، والتجربة أكدت بأن الأخيرة تقضي على ذلك المرض بل وتقتلعه من جذوره، إن توظيف تلك النصوص يجعلُ من العلمنة تبلغ حدودها المنطقية القصوى والتي حملها لنا الشاهدُ الذي نقلناه من"بؤس الدّهرانيّة، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين" لد. طه عبد الرحمن.

نعود إلى إهداء فرح أنطون السابق لنفككه، لأنه وفيما نعتقد يتضمنُ حقائق لا يمكنُ إغفالها مطلقا، من جهة نجده يحدد الفئات التي يوجه لها خطابه وهي فئة العقلاء من جميع أطياف المجتمع من مسيحيين ومسلمين وغيرهما وهي فئة تعلمُ جيدا خطورة الوضع إذا ما بقي هكذا، أي أنها الفئة الوحيدة التي تعرفُ بأن تغيير الوضع الثقافي والتربوي والسياسي ضروري وحتمي وإلا فالهلاك، طبعا هي فئة بلغت من الوعي درجة عالية بان لها على إثره الفرق الشاسع بين الشرق والغرب، كما بان لها الحل الأمثل الذي يمكنُ أن ينتشل الأول ويجعله يلحق بالثاني، وهو إزاحة الدين عن السياسي، لأن في الوصل استبداد وطغيان وتعمية المجتمع على حقوقه المتعددة السياسية والاقتصادية والثقافية وحتى الدينية، الأخيرة يمكنُ التعبيرُ عنها بكفالة القانون وبالتالي الدولة لحقوق المختلفين دينيا من ممارسة عقائدهم وطقوسهم في أمان، بل متساوين مع الأغلبية في كل شيء المطلوبُ من السلطة إذن أن تقف موقف الحياد من العقائد الدينية، وإلا تحولت إلى سلطة قامعة، مستبدة وبالتالي مجتمع مفككٌ ضمنيا موحدٌ شكليا بسبب القوة والقهر، قابل للانفجار والتشرذم في أي لحظة، إن دعوة أنطون هي دعوة للأخذ طوعا بما في الحياة الثقافية الغربية من علوم وفنون أو ما شكل ويشكل مكامن القوة والمنعة للغرب الحضاري، وفي الطواعية يكون الاستقلال والحرية، وإذا لم يتحقق ذلك فالتغيير سيتحقق لكن هذه المرّة كرها وليس طوعا، ويكون المجتمع العربي- المسلم والشرقي مستعمر في كل شيء والدليل على هذه المسألة متضمن في قول أنطون التالي:"ونريدُ بالنبت الجديد أولئك العقلاء في كل ملّة وكل دين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر فصاروا يطلبون وضع أديانهم جنبا في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الإتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد لمزاحمة أهله وإلا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم"8.

تحملُ الجملة الأخيرة الدليل، كما تحملُ فئة من الفئات التي وجه إليها أنطون دعوته كما تحملُ أيضا مرجعا من المرجعيات التي اتكأ عليها، إن الفئة هي فئة الساسة، وفئة الذين زاروا الدولة الغربية سواءٌ في بعثات علمية أو في رحلات أو كسفراء أو من خالطوا العقل الغربي مباشرة مثل البعض

د. فهمي منصور أو فرج بشارة أو سلامة موسى ولطفي السيد أو طه حسين وغيرهم كثر، أما المرجعية فهو يبدو أنه قد قرأ كتاب"أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" لخير الدين التونسي (ت1890م) الذي جاء في أحد صفحاته - والقول له-:"سمعتُ كم بعض أعيان أوروبا ما معناه: إن التمدن الأوروباوي تدفّق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكنُ نجاتهم من الغرق"9. إنها صيغة تأخذُ معنى الجبر، وفي الحالتين الفعل الإرادي للاقتباس وبالتالي الاختيار أو الاقتباس ألقصري الذي لا يكون إلا عن طريق الاستعمار أي اكتساح المدنية الغربية للشرق، يشكل الغرب جزءا مهما أو أساسيا إن لم نقل بصفة كلية في معادلة النهضة العربية والإسلامية والشرقية، لأن وضعه الحضاري هو المطلب الذي يريدُ الاتجاه العلماني أن يحققه، لذا شكل حضور الغرب في المشاريع الحضارية أمرا بالغ الأهمية، كيف لا والسؤال النهضوي الذي انخرط فيه هذا الاتجاه قد صيغ من قبل والغرب بين ثناياه والذي هو: لم تقدم الغرب وتأخر العرب والمسلمون؟ والجواب عنه وكما هو معلوم يستدرج الغرب الحضاري كجزء مهم من الإجابة، بل هو

الإجابة عينها، لأن من يبحث عن الأسباب التي قادت الغرب للتحضر والقوة، سيجد أن غياب تلك الأسباب في المجتمع العربي هو السبب في انحطاط الأمة العربية – الإسلامية والشرقية، لقد غابت العلمنة عن الأخيرة والنتيجة هي الاستبداد والخرافة وتشرذم المجتمع بفعل شيوع اللاتسامح بين الطوائف.

من هذا التوصيف التاريخي دعا أنطون إلى أمرين وشدد في ذلك لتلازمهما "الأول فصل ما هو جوهري عما هو عرضي في جميع الأديان، فالجوهري هو مجموعة المبادئ والعرضي هو مجموعة الشرائع العامة والخاصة والثاني فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمانية وذلك للأسباب التالية: أ- اختلاف غايات السلطتين، ب- لأن صلاح المجتمع مشروط بمساواة جميع أبنائه، ج- لأن السلطة الدينية تشترع للآخرة وغاية الحكومة الإشتراع لهذا العالم، د- لأن الدول التي يسيطر عليها الدين ضعيفة، هـ- لأن الحكومات الدينية تؤدي إلى الحروب"10. إنه يتمثّلُ التجربة الغربية ويعيدُ تمثّل التجربة العربية الإسلامية والشرقية على العموم، الأولى مرّت بمرحلة قبل عصر النهضة والحداثة حيثُ كانت دموية بامتياز، حرق قتل، صلب، تعذيب، تسميم، ونبذ وعزل لكل مختلف عقديا وفكريا، أي لكل من خرج عن الخطاب الرسمي للسلطة الدينية، فما إن"سقطت الإمبراطورية الرومانية حتى قامت (...) الكنيسة بإزالة جميع أنواع التعليم، والتقنيات والعلوم، والطب، والتاريخ، والفن، والتجارة، وجمعت الكنيسة وكدست ثروات هائلة، وذلك عندما غرق بقية المجتمع في العصور المظلمة، ثم عندما قامت التغييرات الاجتماعية المثيرة بعد نهاية الألفية الأولى بجلب نهاية حقبة العزلة قاتلت الكنيسة للحفاظ على تفوقها وسيطرتها، وحشدت حولها بازدياد المتمردين في المجتمع ضد الأعداء المتصورين، وأثارت الحروب ضد المسلمين، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، واليهود وعندما أخفق الصليبيون في إخضاع المتمردين، صرفت الكنيسة قواها ووجهتها ضد المجتمع الأوروبي نفسه، حيثُ أقلعت بحملات وحشية ضد جنوب فرنسا، وأقامت محاكم التفتيش"11. التي صادرت فعل السؤال ومنه إمكان قيام أبحاث علمية جادة في الطب، الفلك، والعلوم الطبيعية، صادرت كل ذلك لصالح النصوص المقدسة التي كانت برأي أصحابها تتضمن كل الحلول للمشاكل التي يصادفها المجتمع في الحياة، إن الطبيعة ومنه العلم الطبيعي "كما يقول أرنست بلوخ، خلال العصور الوسطى مكان فوضى وبلبلة وخواء، كانت ساقطة وفيها يمارسُ الشياطين والأبالسة أفعالهم، وليس ثمة قانون ينظم شؤونها، كل شيء فيها رهين الصدفة والفوضى، إن القانون فيها إذا ظهر فهو استثناء وكانت الطبيعة مهمشة طوال تلك الحقبة، وخاصة المدرسية"12. منها، لقد كانت هي في الهامش كما كان الجسد أيضا مهمشا بل جعلته المنبوذ الذي يجبُ أن يعذب لنيل الخلاص، لقد أعطت لكل ما هو روحي الأولية عن كل ما هو مادي بما فيها الجسد، لذا أفقدت الإنسان الرابطة الحقيقية بينه وبين العالم، وبينه وبين ذاته فهو جسد وروح وليس روحا فقط، لقد اهتمت بالعلوم التي تنمي الروح على حساب الآخر، ولم تهتم بالعلوم التي من شأنها أن تقوي الجسد وتجعله يقاوم الأمراض، الأخيرة كانت تفسرها تفسيرا لاهوتيا، أمرا ربانيا تقول د. هيلين إيليربي:"كان للطاعون تأثير مختلف على المسيحية، فقد تدفق الناس على الكنيسة وهم مرعوبون، وأوضحت الكنيسة أن الطاعون كان من أعمال الرب، وأن الإصابة بالمرض مجرد عقوبة على ذنب عدم إطاعة سلطة الكنيسة، ووسمت الكنيسة جستنيان بالهرطقة، وأعلنت أن ميدان الطب اليوناني والروماني، بلا فائدة في مكافحة الطاعون ومقاتلته،

وأنـه مجرد هرطقـة، ففـي الوقت الـذي أكد فيـه الطـاعون سقوط الإمبراطوريـة الرومانيـة، إنـه متّن الكنيسـة المسيحية وقوّاها"13.

طبعا لم يبق الوضـع على الحالـة تلك، فمن طبيعـة الإنسان التغيير ولو بعد حين، حيثُ استطاع العقلُ الغربي أن يفك عقاله ويخرج من الصندوق ويفكر بحرية، ولم يكتب له ذلك إلا بعد أن تجرأ على استيعاب ما أنتجته الحضارة الإسلامية من فنون وعلوم وطب وفلك وغيرها عن الأخير نجد أن كوبرنيكوس (ت1543م) لم يكن ليحقق انجازه العظيم لو لم يكن قد اضطلع على التراث الإسلامي يقول د. سفردلوف:"إنّ انتقال ابتكاراتهم باللغة العربية (يقصد علماء الفلك المسلمين وتحديدا علماء مرصد مراغة) من الشرق إلى الغرب اللاتينـي مـا يـزال غامضـا حتـى الآن لكـن الهيئـات التـي أتـي بهـا كوبرنيـك فـي كتابـه Commentariolus، لحركات القمر والكواكب في الطول بما في ذلك المشاكل المعقدة في حالة عطارد، هي عينها هيئات ابن الشاطر، حتى في أدق التفاصيل تقريبا باستثناء النقلة إلى مركزية الشمس، واتخاذ المقاييس الأساسية من جداول ألفونسو، لذلك يصعب التصديق، في جميع حالات التطابق المعقدة تلك، أنّ كوبرنيك كان يجهل كليّا أعمـال سـابقيه"15 التطـابق ينفـي عـدم اضـطلاعه علـى التـراث العربـي- الإسـلامي وبالتـالي تنفـى فكـرة أن النهضـة والحداثـة الغربيـة برمتهـا قـد أنجـزت بمقدراتهـا الذاتيـة دون دخـول الآخـر المختلـف عقـديا واثنيـا فـي إنجازهما.

لقد تمت عقلنـة القـول الطبيعـي بعـد طـول زمـن حيـثُ أكمـل كـلٌ مـن كيبلـر (ت1630) وغليليـو غـاليلي (ت1642م) ونيوتن (ت) المهمة حيثُ صارت الطبيعة مفهومة للعقل، بل ويمكنهُ من الوصول إلى القوانين التي تحكمها وبالتالي التنبوء بما يمكنُ أن يحصل، بعيدا عن أساطير النصوص الدينية والتفسيرات اللاهوتية التي حجبت حقيقة العالم الطبيعي ونظامه الخاص، وقل ذلك أيضا عن التاريخ حيثُ تمت أنسنته من جميع الاتجاهات، وصار ناتجا عن الفعل الإنساني في العالم، وبالتالي نفي فكرة أن الحدث التاريخي هو صناعة إلهيـة ليمتد القول بالأنسنـة إلى السياسـي الـذي صـار فـي الأزمنـة الحديثـة ابتداء مـن مكيـافيللي (ت1527م) وجون لوك (ت) وهوبس (ت) وصولا إلى روسو (ت) ومنتسكيو (ت) هو من صنع الإنسان وبقرار منه، وأن التغييـر الـذي يحصـلُ فـي الحيـاة السياسـية هـو شـأن إنسـاني ولا دخـل فيـه لـلإرادة الإلهيـة مطلقـا فـي حصـوله16، ذلـك مـــا يسـمى بـالتغيير الـذي يعنـي"انحلال الـروابط القديمـة وأشـكال الخضـوع والتضـامن القديمة"17، وخلق روابط جديدة وأشكال جديدة من الخضوع والتضامن، تكون الكرامة الإنسانية محورا رئيسا والقدرات الخاصة بها مكفولة قانونا بأن يحققها على صعيد الواقع طبعا دون أن يقود ذلك إلى إذلال غيره من النـاس عبر شلّ قدرتـه علـى العمل وأداء شعائر دينـه بـدون خـوف، لقد فرضت الحداثـة مبدأ التسامح بقوة القانون بين الطوائف الدينيـة المتعددة في المجتمع ليتجذر المبدأ ويطال الفرد، حيثُ منح لـه الحق في أن يعتقد بحريـة دون إجباره على أخذ عقيدة دون عقيدة بالقوة، وإنما يعودُ في حق الاختيار إلى قناعاته الفردية وذلك ما يمكنُ تسميته بالحرية الدينية يقولُ أنطوني جيل:"الحريـة الدينيـة، بمعنـى حريـة الاعتقـاد هـي فـي التسلسل الزمني أول حرية بالإضافة إلى أنها شرط سابقٌ للحريات الحديثة كلها، وبمقدار ما تكون فيه حرية الاعتقاد مرتبط ارتباطا جوهريا مع حق الخصوصية-مع المأسسة الحديثة لمجال خاصّ حرّ من التدخل

الحكومي بالإضافة إلى أنّ هذا المجال حرٌ من السيطرة الكنيسة- وبالقدر الذي يخدمُ فيه حقُ الخصوصية بصفته الأساس الحقيقي لليبرالية الحديثة والفردية الحديثة حينئذ تكون خصخصة الدين جوهرية للحداثة"18 فاتحة بذلك للإنسان الحرية الكاملة في أن يفكر ويبدع ويساءل ما يشاء، عكس المجتمع الشرقي الذي أغلقت فيه جميع المنافذ أمام الفرد ليكون مسخرا لا لذاته وإنما لغيره كالعشيرة والسلطة أي كأداة فقط، إن أول ما طالب به فرح أنطون لما أسس مجلته الجامعة العثمانية هو التأكيدُ على الحرية التي لا يمكن أن تتحقق إلا بوجود الدستور تسير عليه الدولة، وهو في ذلك يتبنى أفكار جول سيمون، وذلك ما نجده في مقالته ذات العنوان"الإصلاح الحقيقي، غرضُ هذه المجلة" والتي كتب يقول فيها:"ضع لأمة من الأمم دستورا حرّا وأطلق حرية أقلامها ومنابرها وقيد ولاتها وحكامها بمجالس إدارية يكون أعضاؤها رقباء عليهم وامنح هذه الأمة ما شئت وما شاءت من الحرية الشخصية والعمومية والسياسية، فماذا ينشأ عن صنعك هذا ؟ ينشأ عنه واحد من اثنين، صلاح هذه الأمة أو فسادها صلاحها إذا كان أفرادها عارفين بما لهم وما عليهم يصرفون هذه الحرية الشريفة التي منحوها في وجهها الدستوري لا يميلون مع هوى نفس ويضعون المصلحة العمومية فوق كل مصلحة ذاتية وفسادها إذا كانوا على عكس ذلك أي أنهم يتخذون حرية الأقلام سبيلا إلى ثلم الأعراض وابتزاز الأموال والطعن على الحكام، وحرية الجمعيات وسيلة إلى التفاضل والتصدّر والمجالس الإدارية ذريعة لمقاسمة الحكام ما يمتصونه من دماء الرعية"19. القضية راجعة للوعي بالواجبات والحقوق، وعدم تخطي الحدود لأن في ذلك هتك للمجتمع، وتعطيلٌ لقدراته في النمو والتقدم، وأساس كل ذلك هو الفضائل الأخلاقية التي يرى فرح بأنها هي الأساس في قوله:"[إن] الفضائل التي مرّ ذكرها [يقصد في قوله السابق] ليست خيرا بإطلاق، بل بالإضافة لأنها تكون خيرا مع الأخلاق الفاضلة والسجايا الشريفة وشرّا مع الأخلاق الفاسدة والسجايا الدنيئة فصلاح الأخلاق إذا هو الأساس الذي يجبُ أن يبنى عليه كل إصلاح وكل فضيلة"20.

يبدو أن عناصر المعادلة التي يريدُ فرح طرحها في الحياة العربية الإسلامية والشرقية متعددة العناصر فرد دستور، حرية، أخلاق، لكن تبقى الأرضية التي ينطلق منها مجهولة بالتمام، لأن الواقع الاجتماعي مفكك طائفيا إثنيا، وفاسد سياسيا، عشائري بامتياز، وأبوي في قيمه التي تأخذُ صيغة عمودية من الأعلى إلى الأسفل، التربية فيه تعتمدُ على التلقين والحشو الذي يصاحبه العنف أو القصر أو التخويف لحفظ المعلومة، وبالتالي هو واقعٌ مريض من جميع جهاته، لأن الإبداع يستلزمُ الشجاعة وهي مفقودة فيه، إن الأرضية التي يستعيد من خلالها أنطون كل شيء الشجاعة، الإبداع والأخلاق الفاضلة وبالتالي صناعة مجتمع سوي يجاري المجتمعات الأخرى هي التربية التي تبتدئ من العائلة وتستمر عبر المدرسة يقول فرح:"الأخلاق أغراس لينة منبت اسلتها حديقتان جميلتان فيهما السعادة والهناء إذا كان على هذه الأرضُ هناء وسعادة، وهاتان الحديقتان هما: العائلة والمدرسة، ونريد بهما التربية العائلية والتربية المدرسية فإنهما الوسيلة إلى غرس الأخلاق الفاضلة في عقول أفراد الأمة وإبلاغهم الدرجة الأدبية التي يستحقون عندها نعمة الحرية السياسية، فيجبُ إذن على الذين يبحثون في إصلاح الأمم إن بدأوا بالبحث في إصلاح أخلاقها إصلاحا أدبيا اجتماعيا قبل الإصلاح السياسي وإلا كانوا كمن يطلب بناء السقف قبل وضع الأساس، ومعلوم أن أوان التربية العائلية قبل التربية المدرسية، فالأولى أساس للثانية، والتربية العائلية من شؤون المرأة ووظيفتها لأنها

الأم، والأم هي المربية الطبيعية، فالمرأة إذا هي التي تضع بيدها اللطيفة النحيفة روح الأمة، ذلك الأساس الوطيد الذي يجبُ أن تبنى عليه الفضائل السياسية، ففي إصلاح شأن المرأة إذا إصلاح الهيئة الإجتماعية كلها"21. إنه يعطي دورا مهما للمرأة في عملية الإصلاح والنهوض، وهو بذلك يضرب المنطق الذكوري السائد في المجتمع العربي- الإسلامي، فالمرأة فيه تقع في الهامش، أو قل همشت بفعل"التأويلات الدينية [الفاسدة] التي دعمت محاولات تهميش المرأة، حيثُ حصرت واجبات المرأة في المنزل والأسرة وفي وظائفها البيولوجية، بحيثُ يتعارض ذلك مع أي طموحات تعليمية أو اقتصادية لها"22. نعم هو يعطيها الدور لكن بشرط أن يعاد تنشئتها من جديد، وعلى أسس جديدة تستمدُ شرعيتها من العصر، جاء في مقال نشر في مجلته"الجامعة" عنوانه"التربية والتعليم، التربية البيتية" يخدمُ مشروعه الخاص كتب فيه"إذا كان الفساد في الأمة فهو في هذا البيت فاقطعوا هذا الفساد منه ينقطع كل فساد سواه في قلب الأمة فمن أراد أن يخدم وطنه خدمة حقيقية يعرفها أبناء الأجيال الآتية إذا لم تعرفها الأجيال الحاضرة فليناد على السطوح بإصلاح التربية البيتية، وما هو إصلاح التربية البيتية ؟، لا شيء أو هو كل شيء كلمة واحدة تدل عليه بل ثلاث كلمات بلا زيادة ولا نقصان وهي ترقية شأن المرأة هذه هي الطريق إلى إصلاح التربية البيتية، ومعنى ذلك بعبارة أوضح إعداد المرأة لوظيفة الأم أي المربية والمدربة، ويقتضي ذلك تربيتها من جديد أي تلقينها أصول تعليم غير الأصول التي تلقتها الآن ومبادئ تربية غير المبادئ التي تعمل بها اليوم وإلا بقي الفساد على حاله وبقينا على ما نحنُ عليه"23. إذا كانت الأرضية الحالية دينية هي الأرضية التي تقومُ عليها الحياة الاجتماعية والأسرية في نهاية المطاف فإن فساد الأخير هو راجعٌ إلى فساد تلك الأرضية ليس إلا، وهذا يعني أن إزاحتها يكون أمرا ضروريا، عبر إحلال أرضية جديدة ومبادئ وقواعد جديدة محلها، طبعا مستمدة من منطق العصر الذي تتساوى فيه المرأة مع الرجل في القدرة على اكتساب المعرفة، بل صارت الأخيرة حقا مشروعا للمرأة في الحضارة الغربية، وإذا تحقق لها ذلك في المجتمع العربي- الإسلامي والشرقي فستكون من حيثُ المرتبة في عملية المشروع النهضوي الرتبة الأولى قبل السياسي، وقبل المفكر، أو قل هي التي تهيئ لهم التربة لكي يكملوا عملية الإنهاض وتغيير الوضع إلى الأحسن، إن المبادئ التي على المرأة أن تعرفها وأن تربي الجيل الجديد عنها مستمدة من الغرب يقولُ فرح:"هذه خلاصة المبادئ التي وضعها الفيلسوف جول سيمون في كتابه (المرأة في القرن العشرين) والمقدمة التي وضعها له بعنوان الإصلاح الحقيقي، وغرض الجامعة العثمانية أن تكون صدى لهذه المبادئ الشريفة فتبذل جهد المستطيع في سبيل نشرها وتوجيه الأنظار إليها فإن الحركة الأدبية والسياسية في أشد الحاجة إليها في هذا الزمان"24. لقد جعل من كتاب سيمون بمثابة أقوم المسالك للنهضة وبالتالي هو بدّل المرجعية القديمة ذات الأساس الديني بمرجعية جديدة ذات أساس إنساني عقلاني، وهو بذلك يبلغ بالعلمنة حدودها القصوى، أي لا تتوقف عند حدود فصل السياسي عن الديني وإنما فصل التربوي والعقلي والعلمي والنفسي عن ديني، أو يصيرُ الأخير أمرا ثانويا في حياة الأفراد، خاصا جدا والغاية من ذلك هو خلقُ مجتمع يسوده التسامح عبر ترسيخ مبدأ الأخوة في النفوس الذي يعدُ أحد عناصر المكونة لشعار الثورة الفرنسية حرية، إخاء ومساواة، والتي يبدو أنها"الحركة العظيمة

الأولى لأفكار المسيحية الأوروبية التي تركت أثرا حقيقيا في عالم الإسلام"25. وفي عقول النبت الجديد الذي رأي سرّ تفوق في الغرب الحضاري.

إن تأكيد أنطون على مبدأ الأخوة يأخذ منحى الأولوية والحتمية قبل أي مبدأ آخر حتى الحرية نفسها لا يمكنُ أن تتحقق في الحياة العربية- الإسلامية والشرقية عموما مثلما تحققت في الغرب الحضاري ما لم يسبقها مبدأ الأخوة الذي يتضمنا فكرة التساهل أو التسامح وبهذا الصدد نجده يقول:"لعمر الحق انك إذا أردت القضاء على الشرق مرّة واحدة فأدخل إليه الحرية السياسية على الطريقة الأوروبية، فإن عناصره الآن وهي مقيدة يبدو منها ما يبدو من التنافر والتضاغن فكيف إذا أطلقت لها العنان وأدخلت القوة المفرقة إليها فوق ما بينها من أسباب التفريق والشقاق، فالواجب قبل إدخال الحرية إدخال من يعد سبيلها، كذا فعل المعمدان قبل مجيء المسيح، الواجب قبل إدخال قوة الدفع في جسم الأمة أن تدخل قوة الجذب بالنسبة للازمة لقيام جسم الأمة وإلا فقوة الدفع من غير قوة الجذب تجعل الجسم هباء منثورا، (...)، إن قوّة الجذب (...) هي غسل القلوب وجمع الكلمة والتعاون على الخير وإدراك معنى الوطنية وتعليم النفوس الإيثار أي إيثار المجموع على الفرد والمصلحة العامة على المصلحة الخصوصية، وتجمع هذه الفضائل السامية كلمة واحدة شريفة هي الإخاء، فالإخاء قوة الجذب والحرية قوّة الدفع فدخول الإخاء إلى الشرق مقدم على دخول الحرية"26. إنه يرتب المبادئ ويحدد ما هو ضروري لعملية النهوض لكي لا تكون هناك كارثة، وفي ترتيبه محق في حالة المجتمع العربي- الإسلامي والشرقي، لأن القوة وحدها هي من أبقت على وحدته على الرغم من أنهم مجتمع فسيفسائي بامتياز إن هذا الترتيب يعطي دورا مهما للمرأة في عملية الإنهاض"والوسائل إلى الإخاء في الشرق ثلاث [يحددها فرح بـ]: الأم في البيت والمعلم في المدرسة والجرائد في السوق،، فإذا وجد في المنازل أمهات يغرس في نفوس أبناء الشرق من صغر أصول الوطنية الصحيحة والمبادئ الشريفة، ووجدت مدارس وطنية يكون فيها التعليم صحيحا إجباريا ويدخل إليها جميع عناصر الأمة فتجلس في مقاعد واحدة وتربى تربية واحدة وتعامل معاملة واحدة ثم وجد في إدارات الجرائد جرائد فاضلة مقيدة كانت او غير مقيدة تتولى قيادة ذلك الجيل الجديد باستقامة ونزاهة نفس واضعة نصب عينيها المصلحة العامة لا مصلحة فئة دون أخرى وفريق دون فريق- إذا وجدت هذه الأمور الفاضلة ساد الإخاء وزالت الشحناء وانبت الحقل الشرقي وبالخصوص العثماني نبتا جديدا إذا أشرقت عليه بعد ذلك شمس الحرية السياسية كانت له نورا لا نارا، وتوازنت فيه قوة الجذب وقوّة الدفع توازنا فيه السلامة والعافية للشرق من جميع شروره ومصائبه، هذه هي طريق نجاة الشرق وسفينة الخلاص، أن يشعر أبناؤه أنهم إخوان لا أعداء، أن يعلموا أنهم أبناء اله واحد وسلطان واحد ووطن واحد فيكونوا إخوة على طريقة يوسف وبنيامين لا على طريقة هابيل وقابيل"27.

إن ما ينطبقُ على الأم ينطبقُ على المعلم الذي يجب أن يكون ذو ثقافة حداثية، يتجدد من خلالها الوعي في روح الجيل الجديد، يكون واعي بمدى خطورة دوره، لذا يجبُ عليه أن يفكك ما في الروح تلك من تناقض وتشتت وأنانية وضغينة ذات الأصول والمنابع الدينية، ويتجاوز بهم الاختلاف الإثني والديني إلى الوحدة عبر غرس قيم المواطنة الحقّة وحب الوطن، وتجاوز فكرة العشيرة والطائفة والعائلة إلى فكرة الأمة والمصير المشترك، تلك هي وظيفة المعلم داخل المدارس المستحدثة التي يجبُ أن تكون عالما وسطا تكون فيه العناية

أشبه بالعناية"البيتية [في] رأفتها ووقايتها [من جهة]، [وأشبه] بالعالم الكبير [في زحامه] ومتاعبه حتى يعتاد عليها [الجيل الجديد]"28. الذي سيكون مختلفا تماما عن الأجيال السابقة، لأنه جيلٌ واعي بحقيقة وضعه التاريخي، وأن عليه أن يكون عمليا أكثر بعد أن تشبع بثقافة العصر ذات البعد العلماني، أي أنه يمتلك الجانبين النظري والعلمي معا، دون أن يفضل إحداهما عن الأخرى، وليس هناك أفضلية للروح عن الجسد أو العكس فالإنسان هو هذه الوحدة التي تجمعهما، وأمر تقويتهما راجعٌ إليها"إن وظيفة المدرسة [تتمثل في تنمية ثلاث أشياء هي] العقل بتعليمه العلوم المنطبقة على حاجاته، والنفس ببث الأدب الصحيح والحكمة الرائعة فيها، و[تنمية] الجسد بتقويته على حمل النفس وتمهيد سبيل عيشها في هذه الحياة بالإقدام والعمل والنشاط"29. إنه يريدُ أن يخلق جيلا عمليا قادرا على تحمل المسؤولية التي ستعطى له وقادرٌ على تجاوز الوضع المزري الذي عليه الدولة العربية الإسلامية مصر خصوصا الشرق الإسلامي عموما، إلى وضع القوة والتقدم والتحضر، طبعا لا يكون ذلك إلا وفق منطلقات جديدة وقواعد ومبادئ ليست بالغريبة عن منطق العصر الذي هو العلمنة – الحداثة، لقد بدأها من النواة الأسرة من خلال تغيير الذهنية للمرأة المربية ثم إلى المعلم الذي يبدو أنه قد خضع لعملية تجديد المعارف وتغيير الرؤى والمبادئ القديمة بأخرى جديدة ذات طابع علماني ليصل إلى المجتمع عبر المجلة التي كان يريدُ من خلالها تغيير الثقافة السائدة التقليدية وتوجيه العقل إلى ثقافة العصر، ثقافة الحياة والجرأة على العمل، وكل ذلك من أجل خلق مجتمع مدني يأتم معنى للكلمة يؤمن بفصل السلطة الزمانية عن الدينية إذ"لا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا أمن ولا ألفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل إلا بفصل السلطة المدنية عن الدينية، ولا سلامة للدول ولا عز ولا تقدم في الخارج إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية"30.

يقدمُ لنا تاريخُ الوصل بين السلطتين عرضا في غاية السوداوية تكفير العقول التي تريدُ أن تتفرد فكرا وقتلٌ للتي تفردت وتجرأت على طرح ما أنتجته والذي يخالف الرؤية القناعات السائدة، وأيضا هو تاريخٌ دموي سواءٌ داخل المجتمع أو خارجه، في الداخل فتنٌ بين الطوائف والأقليّات قتلٌ، نهبٌ، ورعب بين الأطراف، وفي الخارج عداوة مع الدولة المجاورة، حروب باسم الدين، في كلتا الحاليتين كان الفرد الإنساني هو المتضرر الأكبر، ومن بعده يأتي المجتمع، لأن نقطة التغيير تأتي من الفرد ثم تتوسع لتصير أكبر فأكبر، وعلى إثرها يتغير المجتمع، هناك خمسُ أشياء دعت أنطون إلى المطالبة بعلمنة الحياة العربية- الإسلامية أو الشرق وهي:

1. – أول الأشياء وأهمها بالنسبة له هي"إطلاق الفكر الإنساني من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية"31 وبصيغة أوضح تحرير العقل من كل سلطة تمنعه من التفكير والوصول إلى المبادئ الأساسية التي تحكم العالم والاجتماع الإنساني، وهو في هذا يسيرُ وفق منطق عصر الأنوار الذي حدده ايمانويل كانط (ت) في مقاله "ما هي الأنوار ؟" وإجابته عن السؤال الذي يشكلُ العنوان كالتالي"إن بلوغ الأنوار هو خروج الإنسان من القصور الذي هو مسؤول عنه، والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير، وإن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السّبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشّجاعة في استعماله دون إرشاد الغير، تجرأ على أن تعرف !، كنْ جريئا في استعمال عقلك أنت !، ذلك

هو شعار الأنوار"32، الأخيرُ يطالب الإنسان بأن يفكر بحرية في كل المجالات إذ لا يوجد ما يسمى بالخطوط الحمراء التي لا يمكنُ تجاوزها، السياسي صار مفكرا فيه والاقتصادي أيضا، ولم يستثنى من ذلك الدينُ نفسه الذي صار موضوع تفكر ونقد، أي أن النص الديني ليس حكرا على فئة بعينها تتداوله في السرّ، وتأوله كيفما شاءت وتفرض على الكل بأن يأخذوا تأويلها على أنه الحقيقة المطلقة، ولا يجاوز أن يؤوّل بعيدا عن تأويلها ومنطقها الخاص، بل صار يمكنُ تداوله ويمكنُ أن يؤول من جديد، وعلى حسب قدرات الفرد، لم تعد هناك سلطة أو مرجعية بقدر ما صار الإنسان حرّ في أن يفكر وذلك ما فتح للتغيير الباب على مصراعيه، وصار المستقبل لا يشابه في حالة تحققه في الواقع الماضي لأن التقدم والتغيير صار هو منطق الحياة الإنسانية في العصر الحديث.

2. – ثاني الأشياء هو رغبته في تحقيق"المساواة بين أبناء الأمة مساواة مطلقة بقطع النظر عن مذاهبهم ومعتقداتهم ليكونوا جميعا أمة واحدة يشعر أعضاءها بعضهم بألم بعض شعورا حقيقيا"33. ولا يمكن أن تتم الشعور إلا إذا تم غسل النفوس وتطهيرها من الشوائب والترسبات الموجودة في قاع أنفس المربين عبر إزاحتها وإحلال محلها ثقافة جديدة وتمريرها إلى الجيل الجديد، مع تشديد الرقابة على المخلفات التي لم تزاح لكي لا تمر هذا الجيل، والشيء الأكيد أن متانة هذا الأخير وتماسكه وبقاءهما عبر الأجيال اللاحقة لا يكون إلا بتحقيق المساواة وهذا يقتضي العلمنة شرطا ضروريا أي"لا سبيل إلى ذلك (...) [إلا] أن تحكم بينهم سلطة ليست تابعة لمذهب من مذاهبهم بل توضع فوقهم جميعا، وهذا لا يمنع أن يكون رجال هذه السلطة مسلمين أو مسيحيين أو وثنيين وإنما المقصود أن لا يكونوا منصوبين في منصة العدل التي هي منصة الله للدفاع عن دين دون دين، وتأبيد مبادئ دين دون دين لأن الحق البشري الذي أقيموا للدفاع عنه غير منوط بالأديان بل هو فوق الأديان"34. التي يجبُ أن تتحول لأمر خاص جدا لا يمكنُ أن يتجاوز حدود الفرد وحياته الخاصة وإلا تحول الواقعُ إلى فوضى، إن التعالي الحاكم عن الدين في تسيير السلطة الزمانية يجعله مستنيرا أو هو يدفعُ بالتنوير إلى أن يأخذ مداه الأقصى في الحياة الإجتماعية، قد يكون طلب فرح من رجال السلطة بأن يتعالوا عن الأديان مصدره فكر كانط أو على أقل تقدير ذا أصول غربية فهو يقترب من قول الفيلسوف الألماني السابق"إن أميرا لا يجدُ مهانة في القول أنه يرى من الواجب أن لا يلزم الناس بشيء في أمور الدين، بل العكس أن يترك لهم في هذا المجال حرية كاملة، إن مثل هذا الأمير الذي يذهب إلى حد رفض أن ينعت بالتسامح-وهو لقب يدل على الكبرياء- هو نفسه مستنير، ويحق أن يجعله معاصروه والخلف الذي يعترفون له بالجميل على أنه أول من أخرج الجنس البشري من حالة القصور"35. وحقق المساواة بين أفراد مجتمعه، وبالتالي تجنب وقوع كارثة حقيقية في بنية المجتمع إذ لو فضل دينا على دين وفرضه فسيكون التشظي هو النتيجة في النهاية، لأن الفرض تصاحبه القوة والعنف وأي فكرة يكون وراءها ذلك تكون الحياة الإجتماعية هشّة قابلة للانفجار في أي لحظة، ولسلامة ذلك يجبُ التعالي بقدر الإمكان على الدين والمذهبية لحفظ المجتمع وسلامة الدولة، والتعالي يصاحبُ المساواة في التعامل مع الأديان بل يفرض فكرة المساواة بين أطياف المجتمع ليتجذر إلى المساواة بين الأفراد، ولا تقتصر المساواة هنا على جانب الاعتقاد أو التدين وفقط بل تمتدُ إلى المساواة في الحقوق والتي تقودُ بالضرورة إلى المساواة في

الواجبات كالدفاع عن الوطن وسلامة المجتمع، والعمل على ترقية الأخير على جميع المستويات وذلك ما يسمى بالشعور بالمسؤولية اتجاه الوطن وفي العمق اتجاه المجتمع بكامل أطيافه.

3. – أما الشيء الثالث هو تأكيد على أنه"ليس من شؤون السلطة الدينية التدخل في الأمور الدنيوية لأن الأديان شرّعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا، ومن يُلزمها بتدبير الدنيا فإنه ينتهي إلى الفشل وإن نجح في البداية"36. ربما يكون ذلك صحيحا من جهة أن قوة الدين تأتي من فكرة الموت وبالتالي من فكرة المصير، وهما مصدر قوته وتزايدها في الحياة، وبالتالي مهمة السلطة الدينية هو تهيئة الفرد نفسيا للحياة الآخرة، ولئن حقق الدين في مرحلة ما نقلة بالجماعات الإنسانية إلى مرحلة جدّ متقدمة كحالة عرب الجزيرة الذين انتقلوا من مرحلة القبلية إلى الدولة، لكن ما إن تحول إلى كيان إمبراطوري فشل القائمون عليه في استيعاب التناقضات الموجودة في المجتمع لتعدده الطائفي والديني، والنتيجة كان حروبا مذهبية وطائفية وحتى دينية، جمّدت قوته وأنهكتها فيما بعد وما زال إلى الآن يعاني منها، عكس الغرب المسيحي الذي تجاوز مرحلة الصدع والحروب الدموية عبر إزاحة السلطة الدينية من الحياة الإجتماعية وجعلها في المعابد والكنائس دون أن تتجاوز عتبتها إلى الخارج.

4. - والشيء الرابع هو"ضعف الأمة واستمرار الضعف فيها إلى ما شاء الله ما دامت جامعة بين السلطة المدنية والدينية"37. لأن الجمع هنا يصاحبه العنف ضد المخالف لدين ولمذهب الطبقات الحاكمة، ويشيع معجمٌ في الحياة الاجتماعية مصطلحاته من قبيل الكافر، المرتد الزنديق ويتحول أفراد المجتمع من الطبقات الدنيا إلى مشتبه فيه إلى أن يثبت ولاءه لها، وإذا كان من المخالف يبقى مشبوها إلى النهاية، لأنها دوما منحازة لمن ينتمي إلى دينها وذلك علّة ضعف الأمة وتقهقرها لأن مساحات الحرية للعقل تكون ضيقة أو شبه منعدمة في أغلب الأحوال، وبالتالي يقلّ الإبداع والابتكار، لهيمنة ثقافة الشرح والتكرار، عكس الغرب المسيحي الذي أزاح السلطة الدينية من الحياة الاجتماعية وصار يشرف عليها بعد أن حدد لها حدودها الخاصة والتي هي الإشراف على أماكن العبادة والكنائس فقط، أما البقية فقد هيمت عليها السلطة الزمانية لذا جاءت نظرتها إلى الأفراد نظرة واحدة بدون تحيز، والنتيجة هي مساحات للحرية الفردية قادت العقل إلى الإبداع، والمجتمع إلى الوحدة والمنعة.

5. –أما الشيء الخامسُ والأخير فهو"استحالة الوحدة الدينية [والتي يمكنُ عدها] من أهم الأمور [ومن] أكبر الأسباب التي دعت إلى الفتن والاضطرابات في الإسلام والمسيحية، وإلى هذا السبب ننسب كل الحوادث الدموية التي حدثت فيهما"38. الوحدة تقضي على الاختلاف، تدمج بالقوة عناصر لا يمكنُ لها هي بالذات أن تفرض الوحدة بين مختلفين، لأن الوحدة الحقيقة يأتي مصدرها العقل أو القلب لأن الإيمان بدين ما لا يكون بالقهر بقدر ما يكون بالحوار تكون المساحة بين المتحاورين مساحة من الحرية، لأن العقل الراشد يأبى أن يأخذ الأمور والتصورات دون أن يمتحنها، وذلك هو علّة الاختلاف بين الأفراد وبالتالي بين المجتمعات، منها من بقيت في المرحلة اللاهوتية ومنها من تجاوزتها إلى المرحلة الوضعية أين الدين صار في الهامش، إن المسألة على حقيقتها أن كل عملية توحيد في المجتمع على يد السلطة الدينية يصاحبها عنف وقهر أو قل استئصال للمخالف، لذا لا يمكن أن يتحقق توحيد المجتمع وفق السلطة الدينية، لأن الكرامة الإنسانية

ستذل، وستواجه السلطة الدينية بردّة فعل مضادة، ويكون المنطق الحاكم هو العنف والعنف المضاد، ولتجاوز الفوضى والفتن يجبُ أن تكون السلطة الزمانية هي الحاكمة المتجسدة في الملك الذي"لم يخلق لتكون الأمة له بل هو خلق ليكون خادما للأمة، وعلى ذلك فهو مقيد بالمجالس الشورية، وهذه المجالس الشورية تتألف من عقلاء المملكة من جميع عناصرها، فمتى خطر للملك خروج عن جادة العدل والسواء المطلق انتصارا لقوم على قو أو لمذهب على مذهب وجد رجال الشورى قياما في وجهه كأسوار تصده عما يريد من السوء بفرق من رعيته، بل أننا أخطأنا في تسمية تلك المجالس 'مجالس شورى' وهذا خطأ يقع فيه كثيرون والصحيح أنها مجالس أمر لا شورى، فالمقصود من الشورى أن يشاور الملك رجاله وله الحق في أن يعود إلى رأيه وينفذه دون رأيهم إذا شاء، وأما مجالس أوروبا النيابية المبنية على التساهل الحقيقي والحق الحقيقي فالمقصود بها سن الشرائع للجري عليها في الأمة بموافقة الملك، أي الملك لا يجوز له أن مناقضة تلك الشرائع المسنونة على أيدي نواب الأمة، بل هو أول الخاضعين لها"39. وهو ما يريد أنطون أن يتحقق في الحياة العربية – الإسلامية والشرقية، في نهاية المطاف ومن خلال العرض الذي قدمناه نجد بأن أنطون مفكر علماني بامتياز يبدأ التغيير عنه من النواة أي الأسرة ويصل إلى هرم السلطة الذي يصير متعاليا عن كل الديانات ويستمد مشروعيته من الإنسان وليس من الدين أو الله وذلك ما قالت به الحداثة بالتمام.

خاتمة:

أن تحقيق العلمنة يتطلبُ عملية إنضاج للعقل منذُ البداية، بعيدا عن العقائد المغلقة التي تعيقُ فعل النهوض لمجتمعات هي من حيثُ الطبيعة متعددة عقديا وثقافيا واثنيا، فسيفسائية بامتياز، لأن العقائد تلك تحملُ في عمقها روح التكفير، والتشدد مع المختلف في كل شيء، وبالتالي عملية الإنضاج تتطلبُ عمليات متعددة تتراوح بين إزاحة وتضييق من جهة، واستدراج وإسكان من جهة ثانية وهي على التوالي:

- - إزاحة الثقافة التقليدية المتخلفة، واستدراج الثقافة الغربية ذات الطابع الإنساني إلى اليومي العربي والإسلامي، وجعلها تتسيدُ المشهد التعليمي، والتثقيفي في المدارس والمعاهد والجامعات.
- - لما كان الوجود الإنساني يتكون من جنسين مختلفين، ذكرا وأنثى، فإن الهمّ النهضوي وتحمل أعباء ترشيد المجتمع العربي والإسلامي لا يمكن أن يقوم به طرف فقط، بل يجبُ أن تتضافر الجهود بين المرأة والرجل في تفعيل العقل العربي والإسلامي، وتوجيهه الوجه الصحيحة التي لا تتناقض مع منطق العصر ذي الروح الغربية .

-أن التربية التي غايتها تفعيل العقل وتحقيق نهوض شامل، ليست منوطة بالمدارس أو المعاهد أو الجامعات وحدها، بل تدخل الأسرة أيضا في العملية التربوية، بل وتبدأ منها، لذا يجبُ أن تكون الأسرة العربية والمسلمة ذات ثقافة عقلانية، والأدق أن تكون المرأة/ الأم على مستوى عالي من الثقافة العقلانية البعيدة عن الأساطير، فضلا عن التعصب، والحقد والكراهية.

- -أن الغاية الأولية من الفعل التربوي سواءٌ في الأسرة أو المدرسة أو الجامعة هو إخراج فرد سوي يستوعبُ الآخر المختلف دنيا، عرقيا وطبقيا، والغاية النهاية منه هو إخراج مواطن صالح ليس إلا.

- -أن علمنة الدولة أمرٌ ضروري، أعني فصل الدين عن الدولة، لأن الفصل يمنح للدولة القوة، ويجعل من الكل يناضلُ لأجلها، لأن العلمنة تقتضي فكرة المساواة والعدالة بين الكل.

وهذا يعني أن فرح أنطون قد حاول تجذير العلمانية في اليومي العربي والإسلامي، بدءا من الأسرة وصولا إلى الدولة مرورا بالحياة الدراسية وبالتالي الثقافية بالضرورة، لأن العلمنة برأيه تجعل منها ندخل إلى العصر بأدوات العصر وروحه ليس إلا.

الهوامش

---

[1]- سمير أبوحمدان: فرح أنطون، صعود الخطاب العلماني، د/ط، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1992.

2- فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المنظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، تق طيب تيزيني، ط01، دار الفارابي، بيروت، 1988: ص41.

3- طه عبد الرحمن: بؤس الدّهرانيّة، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، ط01، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2014: ص11 بتصرف

4- محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة، د/ط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006: ص12 بتصرف.

5- فرح أنطون: عود إلى فلسفة نيتشه وإلى تاريخ رينان، مجلة الجامعة، ج01، مجلة علمية اجتماعية تاريخية أدبية ونصف شهرية، القاهرة، السنة07، ديسمبر 1909: صص 42، 43.

6- محمد صبري الدالي: التصوف وأيامه، دور المتصوفة في تاريخ مصر الحديث، د/ط، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2012: ص313 بتصرف

7– فرح أنطون: الفيلسوف نيتشه وفلسفته، مجلة الجامعة، ج01، مجلة علمية اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية نصف شهرية، نيويورك، السنة 06، فبراير 1908: صص17،16 بتصرف

8-فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المنظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، مرجع سابق: ص41

9-خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تق محمد الحداد، د/ط، دار الكتاب المصري، القاهرة، 2012: ص74.

10-خليل أحمد خليل: مستقبل الفلسفة العربية، ط01، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1981 ص354.

11هيلين إيليربي: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، تر وتق سهيل زكار، ط02، دار قتيبة، دمشق، 2014: ص16

12-نقلا عن: عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذّات (منظور نقدي)، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997: ص 62

13-هيلين إيليربي:الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، المرجع نفسه: ص57

15-جورج صليبا: العلوم الإسلامية، وقيام النهضة الأوروبية، تر محمود حداد، ط01، كلمة للنشر، أبوضبي، 2011: 336

16-للإستزادة والتفصيل نقترح قراءة هذه الكتب:

I.–بوزيرة عبد السلام: طه عبد الرحمن ونقد الحداثة، ط01، جداول للنشر، بيروت، 2011: صص32، 33، إلى صص55، 56.

II.– قاسم شعيب: فتنة الحداثة، صورة الإسلام لدى الوضعيين العرب، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2013: صص 12، 13 إلى 21، 22.

17-تشارلز تايلور: المتخيلات الاجتماعية الحديثة، تر الحارث النبهان، مرا ثائر ديب، ط01، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2015: ص172

18-أنطوني جيل: الأصول السياسية للحرية الدينية، تر محمد محمود التوبة، ط01، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2014: ص63

19-فرح أنطون: الإصلاح الحقيقي، غرض هذه المجلة، مجلة الجامعة العثمانية، ج01، مجلة سياسية أدبية علمية تهذبية، نصف شهرية، الإسكندرية، السنة 01، 15 مارس1899: ص04

20-المرجع نفسه: الموضع نفسه، بتصرف.

21-المرجع نفسه: صص04، 06.

22-عفاف لطفي السيد مارسو: المرأة والتحديث، إعادة تقويم، تر: أمينة عامر، ضمن كتاب: بيتر جران، نيللى حنا وآخرون: النساء والأسر وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي، حرره بالإنجليزية أميرة الأزهر سنبل، تر آمال علي مظهر وعثمان مصطفى عثمان وآخرون، مرا رؤوف عباس، د/ط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999: ص57 بتصرف.

23-فرح أنطون: التربية والتعليم، التربية البيتية، مجلة الجامعة العثمانية، ج06، مجلة علمية أدبية تهذيبية، نصف شهرية، الإسكندرية، السنة 01، 01 يونيو (حزيران) 1899:صص101، 102.

24-فرح أنطون: : الإصلاح الحقيقي، غرض هذه المجلة، مرجع سابق: ص05.

25-إيريك هويزباوم: عصر الثورة، أوروبا (1789-1848م)، تر فايزة الصيّاغ، تق مصطفى الحمارنة، ط01، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007: صص128، 129.

26-فرح أنطون: الإخاء والحرية، سبب تسمية الجامعة العثمانية، مجلة الجامعة العثمانية، ج03، مجلة سياسية علمية أدبية تهذيبية، نصف شهرية، الإسكندرية، السنة01، 15 ابريل (نيسان) 1899: ص34

27-المرجع نفسه: صص34، 35.

28-فرح أنطون: التربية والتعليم، التربية الثانية (المدرسية)، مجلة الجامعة، ج21، 22، الإسكندرية، السنة 01، شباط 1900: ص513 بتصرف شديد.

29-المرجع نفسه: ص514 بتصرف

30-فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المنظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، مرجع سابق: ص260.

31-المرجع نفسه: ص248

32-ايمانويل كانط: جواب على السؤال ما هي الأنوار ؟، ضمن كتاب: ايمانويل كانط: ثلاث نصوص، تأملات في التربية، ما هي الأنوار ؟، ما التوجه في التفكير؟، تعريب وتع محمود بن جماعة، ط01، دار محمد علي للنشر، تونس، 2005: ص85

33-فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المنظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، مرجع سابق: ص248

34-المرجع نفسه: صص249، 250 بتصرف.

35-ايمانويل كانط: جواب على السؤال ما هي الأنوار ؟، مرجع سابق: ص92

36-فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المنظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، مرجع سابق: ص250.

37-المرجع نفسه: نفس الصفحة.

38-المرجع نفسه: ص254 بتصرف.

39-المرجع نفسه: ص262.